



الفصل الثاني

الحياة الإجتماعية

لعلّ الوصف الذى يقارب الصدق ، وينطبق على هذا العصر هو « مجاوزة الحد » فى كل أمر من الأمور ؛ فلا نكاد نجد فى التاريخ عصرا لا يعرف القصد أو الاعتدال فى أى شأن من شئون الحياة كهذا العصر ، فقد تجاوز الحد فى الفوارق بين الطبقات ، وفى البناء والعمارة ، وفى الزهد والمجون ، وفى تطبيق الشريعة والقوانين ، وفى نوازل الأيام وكوارث الطبيعة .

اختلف العلماء فى تصنيف طبقات المجتمع فى العصر المملوكى ^(١) ، فمنهم من قسّمه إلى طبقتين ، أو ثلاث ، ومنهم من جعلها سبعا ، وهى : أهل الدولة من المماليك ، وأهل اليسار من التجار ، ومتوسطو الحال من السوق والباعة ، وأهل الفلاح ، والفقهاء وطلاب العلم ، وأرباب الصنائع وأصحاب المهن ، وذوو الحاجة والمسكنة

وربّما دلّ هذا التقسيم على الوظائف الاجتماعية فى الدولة أكثر من دلالاته على ما يميّز الطبقات بعضها من بعض فى توزيع الثروة القومية ، وفى مستوى المعيشة ، وفى المستوى الثقافى أيضا .

فمن المماليك الحكّام من كان يُصَادَر ، وتؤخذ ثروته ، ويعيش فى بؤس شديد ، وفقر لا حدود له ، إلى الحد الذى يحسد فيه الفلاح الفقير ؛ فيتمنى أن يكونه ، يسوق حمارا ^(٢) ، ويجد فى عيشته القاسية الأمن ، والغذاء .

ومن المماليك الأمراء من تفرّغ للاشتغال وطلب العلم ، وتصدّر للإقراء والإفادة ، والصفدى واحد منهم .

ومن الفقهاء وطلاب العلم من جمع ثروة عظيمة ، وكان له ممالك وإقطاعات ^(٣) ، ومنهم من عاش عيشة متوسطى الحال ومنهم من يُعَدُّ من المساكين وذوى الحاجة .

(١) انظر ابن نباتة المصرى ٤٢ .

(٢) الوافى ٩ / ٤٦٠ .

(٣) انظر ترجمة الفخر الرازى فى الأعلام ٦ / ٣١٣ ، و ترجمة ابن الأدمى فى تاريخ ابن قاضى

شبهة ١ / ٣ / ٤٩٥ .

وسأتحدث عن طبقات المجتمع من خلال مجالات خاصة - كالملكية الزراعية ، والثروة ، ومستوى المعيشة - مما هو آيين فى إبراز الفروق بين الطبقات . فى الملكية الزراعية كانت الأرض كلها ملكا للسلطان وحده ، يأخذ منها ما يستحسنه ، ويوزع الباقي على الأمراء ، والأجناد كل بحسب رتبته ؛ فللسلطان الربع ، ولنائبه الثمن ، والباقي لأعوان السلطان ومساعديه ^(١) ، ولم يُسمح للمواطنين بامتلاك الأرض إلا بعد الوباء الأسود فى سنة ٧٤٩ هـ الذى أهلك جُلّ الفلاحين ، ولم تجد الأرض من يزرعها ، وكان الأمير يمتلك الأرض ، ومن عليها من فلاحين ، وما عليها من حيوان وآلات ومساكن ^(٢) ، وإذا مات الأمير ، أو قُتل ، أو صُودر رجعت ملكية الأرض للسلطان ؛ فيعيد توزيعها من جديد وفق هواه ، وإذا كلف السلطان أحد الأمراء قتل أمير آخر ضم القاتل أملاك القتيل إلى أملاك قاتله ، وربما ورثه فى جميع أمواله ، كما يرث نساءه وجواريه ^(٣) .

وفى مجال الثروة تبرز ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : طبقة الممالك ، والحديث عن ثروتهم شبيه بالأساطير ، وأقاصيص الخرافة ^(٤) ، فقد زادت محاصيل الأراضى الزراعية ، وازدهرت الصناعة ، واستأثر الممالك بالقسم الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ^(٥) ، وفرضت الضرائب الكثيرة على التجار وأرباب المهن والصنائع والسقائين ، كما فُرِضَت الضرائب فى مناسبات خاصة كالأفراح ، وعمل شعار الملك وأُبْهَت السلطان ^(٦) .

(١) انظر : الوافى بالوفيات ٩ / ٤٧٨ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ٨١ .

(٢) انظر : الممالك ١٥٩ - ٢٠٥ .

(٣) الوافى بالوفيات ١٠ / ١٤٢ .

(٤) انظر الحديث عن ثروة شيخو فى البدايةوالنهاية ١٤ / ٢٥٨ ، وتكيز فى البداية والنهاية ١٠ / ٤٢٠ ، وثروة الأمير سلاّر فى النجوم الزاهرة ٩ / ١٧ .

(٥) انظر : العصر الممالىكى ٢٨٥ - ٣٠٤ .

(٦) النجوم الزاهرة ٩ / ٤٤ . والأُبْهَت - بالضم وتشديد الباء - : العظمة ، والبهاء . انظر : اللسان ٥ أبه ١٣ / ٤٦٦ ، والألفاظ الفارسية ٧ .

ولم تكن مصادر هذه الثروة مشروعة ، فى كل الأحوال ؛ فقد يلجأ بعض الأمراء إلى السرقة ، والاعتصاب ^(١) ، واستغلال المنصب ^(٢) ، ويجب ألا ننسى أن احتفاظ الأمراء بكل هذه الكنوز تحت أيديهم ، وفى قصورهم شكّل خطرًا كبيرًا على موازين الدولة الاقتصادية ؛ فتورّط فى عجز مالى ، يدفعها إلى أن تتخذ تدابير قاسية لتوفير حاجة الدولة من المصاريف ^(٣) ، وقد تضطرّ إلى غش العملة ؛ فتخلط الدينار بالفضّة ^(٤) .

وقد أفاض التاج السبكي ^(٥) فى تصوير ما عُرف عن أمراء المماليك من الإسراف ، وحبّ الذهب ، واعتبره من قبائحهم ، فهم يُذهّبون الأطرزة العريضة ^(٦) ، والمناطق ، وغيرها من أنواع الزينة ، ويزخرفون سقوف قصورهم وحيطانها بالذهب ، « وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب ، فى هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة ، لا يحصّيها إلّا الله تعالى ؛ فإنّه لا بد فى كل منطقة ، أو طراز ، ونحوه من ذهاب شيء - وإن قلّ جدًّا - تأكله النار ، وهو فى الأبنية أكثر ، فإذا ضمنت ذلك القليل إلى قليل آخر ، على اختلاف البقاع ، والأزمنة لم يُخصّص ما ضاع من القناطير المقنطرة من الذهب إلّا الله تعالى ، ثم القنّـر الذى يسلم ، ولا يضيع ، يصير محبوبًا عندهم أطرزة ، ومناطق ، وسلاسل

(١) انظر : مطالعات فى الشعر المملوكى ٤٥ .

(٢) بدائع الزهور ١ / ١ / ٥٤٦ .

(٣) انظر : السلوك ٢ / ٣ / ٩٢٠ .

(٤) انظر : الوافى بالوفيات ٨ / ٩٠ .

(٥) أبو نصر ، عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، تاج الدين ، السبكي (٧٢٧ / ٧٧١ هـ) من قضاة الشافعية ، مؤرخ ، أديب ، أصولى ، فقيه ، مولده بمصر ، ووفاته بدمشق ، انظر : ألحان السواجع ٥٠٥/١ ، والوافى بالوفيات ٣١٥ / ١٩ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٩١ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٣١٨ ، والمنهل الصافى ٧ / ٣٨٥ ، والدليل الشافى ١ / ٤٣٣ ، والأعلام ٤ / ١٨٤ ، ومعجم المؤلفين ٦ / ٢٢٥ .

(٦) الطراز ، جمعه طُرُوزٌ ، وطرازات ، وأطرزة : الثوب الموشى ، وعلم يحتوى على شعار السلطان أو الأمير ، وكان لتلك الكتابة والنقوش دار خاصة ، تسمى « دار الطراز » . انظر : المغرّب ٢٢٣ ، والألفاظ الفارسية المعربة ١١٢ ، رسوم دار الخلافة ٢٦ ، المجموع اللغيف ٢٣ ، Dozy : Supp. dict.

وكنائش^(١)، وسروجا ، وغير ذلك من المحرمات المختلفة الأنواع ، ولو كان مضروباً سكةً ، يتداوله المسلمون ؛ لانتفعوا به ، ورخصت البضائع ، وكثرت الأموال «^(٢) .

الطبقة الثانية : تضم موظفي الدولة ، والتجار ، وأصحاب المهن والعلماء ، وكانت الأموال التي يحصلون عليها أجراً على أعمالهم في وظائفهم ، أو كسباً من تجارتهم وصنائعهم كانت توفر لهم - عادة - حياة طيبة ، وعيشة رغدة^(٣) ، وبالرغم من ذلك ؛ فإننا نجد بعض الموظفين تغريهم الدنيا ، ويدفعهم الطمع في الكسب الحرام إلى الانحراف عن سواء السبيل ، فمنهم من يزور في الأوراق الرسمية^(٤) ، أو يرتشى^(٥) ، ومنهم من كان يغش النقود ؛ فيخلطها بالرصاص ، أو النحاس^(٦) .

ومتى انكشف أمر هؤلاء المنحرفين كانت الدولة تُنزلُ بهم أشد أنواع العقاب ، وتصادر أموالهم ، وتلزهم برد المبالغ التي اختلسوها ، وإذا عجزوا عن تدير المطلوب منهم فقد يضطرون إلى بيع ممتلكاتهم ، وبناتهم ؛ لسداد تلك الديون^(٧) .

الطبقة الثالثة : وتضم عامة الناس : من الفلاحين ، والمساكين ، والعاطلين والعاجزين عن الكسب يجمعهم كلهم البؤس والشقاء ، فقد كان يعيش في القاهرة وحدها حوالي مائة ألف بلا مأوى إلا الطرقات ، وبلا ملابس إلا الأسمال البالية^(٨) .

(١) الكنبوش ، والجمع كنابش ، وكنائش ، وتطلق على :

أ - البرذعة تكون تحت السرج ، وكان يكتب عليها ألقاب السلطان ، أو الأمير بالزركش ، والذهب ، والحبر .

ب - خمار أو « برقع » تغطي به النساء وجوهها ؛ لحمايتها من برودة الهواء .

انظر : صبح الأعشى ٢ / ١٣٣ - ١٣٥ ، و ١٢ / ٤ - ٥٤ ، وانظر : Dozy : Supp. dict.

Arab. V. II P. 499.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم ، للسبكي ٥٠ . (٣) انظر : صبح الأعشى ٤ / ٥١ .

(٤) انظر : أعيان العصر ٣ / ٧٢٠ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٦٧ .

(٥) انظر : السلوك ٣ / ١ / ٨ . (٦) نفسه ٢ / ٣ / ٧٧١ .

(٧) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦٩ .

(٨) انظر : العصر المماليكي ٣٢٤ .

الأشمال جمع سَمَل : وهو الثوب الخَلَق ، انظر : أساس البلاغة ٢٢٠ .

كان نصيب الفلاحين الإهمال ، والاحتقار ، وصار لفظ « فلاح » رمزاً على التخلف والجمود ، والسبب ، يستعمله الناس في الهجاء ، وتحمل الفلاحون من الظلم ، والمغارم ما لا سبيل إلى وصفه ؛ فالحكام يأخذون منهم الضرائب مضاعفة ، ولم يسلموا من أذى العربان الذين كانوا يغيرون على القرى ، فينهبون المحاصيل ، والمواشى ، ويفرضون عليهم « إتاوات » باهظة ^(١) ، ويكون الخطب أشد ، والنازلة أنكى إذا وقع الخلف بين الأمراء ، وشهر أحدهم السلاح في وجه منافسه ؛ لأن الجنود كانوا يعيشون فساداً في القرى ، ويأخذون الأقوات ، ويفجرون بالنساء ، وقد يضطر الفلاحون إلى ترك بيوتهم ، ويهيمنون على وجوههم في الطرقات ^(٢) ، ولو اقتصر الأمر على أوقات النزاع لهان الأمر ولكنهم كانوا يخرجون إلى الصيد كثيراً ، يترضىون ، ويرتكبون من الجرائم ما يندى له الجبين ، يقول التاج السبكي : « سمعت أن واحداً منهم خرج مرة إلى الصيد ، فافتقر - هو ومماليكه - من بنات البر سبعين بنتاً حراماً وتنوع في الفسق بالغلمان ، والخمر ، والبراطيل ، ونحو ذلك » ^(٣) .

ومن المعتاد أن تتولد الجريمة في أجواء الجور والعسف ، فيكثر المنحرفون ، والخارجون على القانون الظالم ، وربما تكونت من هؤلاء التأثيرين على الأوضاع جماعات تستخدم وسائل مبتكرة في التهديد ، وابتزاز الأموال ، وتحتال بطرق مأكرة في النجاة من العقاب ^(٤) ، ومنهم من يحترف النصب والاحتيال ^(٥) ، ومنهم من يحترف شهادة الزور ^(٦) ، وإذا قبضت الشرطة على المشتبه فيهم فإنهم يعذبونهم عذاباً شديداً ، ويضربونهم بالمقارع ^(٧) ضرباً مبرحاً ؛ ليعترفوا ، وقد يموت منهم أفراد من التعذيب ^(٨) .

(١) الإتاوة : الخراج ، والرشوة . انظر : القاموس المحيط « الأتو » ٤ / ٢٩٧ .

(٢) انظر : الوافي بالوفيات ٨ / ٨٩ ، والبداية والنهاية ١٤ / ٢٤٤ .

(٣) معيد النعم ٥٢ . (٤) السلوك ٢ / ٣ / ٦٤٩ .

(٥) نفسه ٢ / ٣ / ٦٤٩ . (٦) نفسه ٢ / ٣ / ٩١٥ .

(٧) المقارع جمع مقرعة : وهي خشبة تضرب بها البغال والحمير .

انظر : لسان العرب « قرع » ٨ / ٢٦٤ .

(٨) الوافي بالوفيات ١٠ / ١٩١ .

ومن الجدير بالذكر أنَّ نعلم ما يحدثه سوء توزيع الثروة من تفاوت كبير بين الطبقات ، فى مستوى المعيشة ؛ فنجد الممالك فى حياتهم الخاصة صورة للبذخ ، والإسراف فيما يأكلون ، ويلبسون ، وكانت قصورهم الفاخرة تزين سقوفها بالذهب ، وتنقش بالجواهر ، وتغطى أرضها بالرخام الثمين ، وتوث بالفرش الغالية ، وكان هذا الترف ، والتفاخر بالثراء طابع حياتهم فى :

المجالات الدينية ، والدينية ، وفى أمور الدولة أيضا وسأضرب أمثلة على ذلك :

فى المجال الدينى : عندما خرج الملك الناصر لأداء فريضة الحج ، فى سنة ٧١٧ هـ ، فى موكب حافل ، ضيّعت له أدوات المطبخ من الذهب ، والفضة ، والنحاس ، ووضعت أحواض مزروعة بالزهور ، والرياحين ، على ظهور الإبل ، تسير مع الراكب ، وتقطف زهورها للسلطان ، وتقدم إليه فى كل صباح ^(١) .

وعندما خرجت زوج الناصر الخوند الكبرى طغى إلى الحج ، احتفل بها القاضى كريم الدين احتفالا كبيرا « حَمَل لها البَقْل فى محائر طين على ظهور الجمال ، وأخذ لها البقر الحلابات تكون معها فى الطريق ؛ ليؤخذ لبنها ، ويجتن ، ويصنع لها فى الغداء والعشاء الجبن المقلو السخن ، وناهيك بمن وصل إلى هذين النوعين : البَقْل والجبن ، وهما أحسن ما يذكر » ^(٢) .

عندما حجَّ الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فى سنة ٧٧٨ هـ سار معه قطاران من الجمال تحمل الخضر المزروعة ، وأما أصناف الطعام والشراب فلا تدخل تحت حصر ، منها « ثلاثون ألف علة حلاوة ، فى كل علة خمسة أرتال ، كلّها معمولة من السكر المكرر المصرى ، وطُيئت بمائة مثقال مسك ، سوى الصندل والعود ؛ هذا للسلطان خاصّة نفسه ، بخلاف ما كان للأمراء ، والخاصّة ^(٣) » .

(١) النجوم الزاهرة ٩ / ٥٨ .

(٢) أعيان العصر ٢ / ٦٠٠ ، والوفى بالوفيات ١٩ / ٩٨ .

(٣) الخاصّة : والجمع الخاصّة ، ذكر دوزى أنّها كلمة مركبة من كلمة عربية ، ومقطعين فارسيين ، فهى مركبة من خاص ، ويك وهى علامة التصغير الفارسيّة ، وي وهى علامة الأفراد ، وتقوم =

وعندما حجّت خوندًا بركة - وهي أمّ الملك الأشرف - في سنة ٧٦٩ هـ حُبل لها مثل ما يحمل للسلطان ^(١).

وفي المجال الدنيوى : خطب الملك الناصر ابنة الأمير بِكْتَمُر ^(٢) زوجها لابنه آنوك ^(٣) ، وجَهَّز الأمير ابنته جهازا يليق بابن السلطان فأنفق على الفرش والأثاث مليون دينار ، ونُقِل إلى بيت الزوجية محمولا على رعوس ثمانمائة حُمّال ، وستة وثلاثين قطارا من البغال وأما الجواهر والحلى فكانت فى صناديق ، يحملها تسعة وتسعون بغلا ، ووقف الناصر يستعرض الجهاز فى غضب ، ويبدى ألمه ، ويقول : « هذا يا أمير ما يقابل به آنوك ، والتفت إلى الأمير سيف الدين طُقُز تُمُر والأمير سيف الدين أَقْبَغَا وقال : جَهَّزًا بنتيكما ، ولا تتخاشا مثل الأمير » ^(٤).

ومن ذلك : خرج الملك الظاهر برقوق ^(٥) ، فى سنة ٧٩٦ هـ ، متوجّها إلى

= مقام التنوين فى اللغة العربية ، وهى بهذا التركيب تدلّ على كل من يخص السلطان ؛ فهم الذين يلازمونه فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتكفلون بجميع الأعمال ؛ فيجهّزون فى المهمات الشريفة ، والمقربون فى المملكة ، ومنهم من كانت له وظيفة ، ومنهم من كان بلا وظيفة . راجع : زبدة كشف الممالك ١١٥ ، وتأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي من الدخيل ، Dozy : Supp. dict. Arab. ، V.I , P. 346 . والنجوم الزاهرة ١١ / ٧٠ .

(١) الدرر الكامنة ١ / ٤٧٤ ، والنجوم الزاهرة ١١ / ٥٤ .

(٢) الأمير سيف الدين بِكْتَمُر الساقى (ت ٧٣٣ هـ) من كبار أمراء الدولة ومن المقرّين إلى السلطان ، فلا يكاد يفترق أحدهما عن صاحبه ؛ حتى قيل : هو الدولة . انظر : الوافى بالوفيات ١٠ / ١٩٣ ، والدرر الكامنة ١ / ٤٨٦ .

(٣) آنوك بن محمد بن قلاوون (٧٢٣ - ٧٤٠ هـ) لم يكن عند أبيه أعزّ منه فقدّمه على إخوته ، وهم أسنّ منه ، وزوجه وعمره عشر سنوات ، ومات قبل أبيه . انظر : أعيان العصر ١ / ٦٣٠ ، والوافى بالوفيات ٩ / ٤٣١ ، والدرر الكامنة ١ / ٤١٨ .

(٤) انظر : أعيان العصر ١ / ٦٣١ ، والمنهل الصافى ٣ / ١١٠ .

(٥) أبو سعيد ، بَرْقُوق بن أنص ، سيف الدين ، العثماني نسبة إلى عثمان تاجر الرقيق الذى جلبه (٧٣٨ - ٨٠١ هـ) أوّل من ملك مصر من الشراكسة ، انتزع الملك من أمير حاج ، آخر ملوك أسرة قلاوون ، والملقب بالصالح ، وذلك فى سنة ٧٨٤ هـ ، وخُلِع فى سنة ٧٩١ هـ ، ثم أعيد إلى الملك بعد سنة واحدة ، وأخباره كثيرة ، وله أعمال إصلاحية ، وأنشأ كثيرا من المرافق . انظر : الأعلام ٢ / ٤٨ .

الشام ؛ لقتال تيمورلنك ^(١) ، فُحِجِل له خمسة قناطير من العاج ، والأبنوس ؛ ليصنع له منه الشطرنج الذى يلعب به ، فقد اعتاد السلطان أن يلعب بالشطرنج مرة واحدة ، فقط فإذا فرغ من اللعب ، أخذه منافسه ، وُضِنِع للسلطان غيره ^(٢) .

وفى مجال أمور الدولة : تشبَّههم بقارون فى زينته ؛ فإذا خرج أحدهم فى موكب ركب جواده ، والجنائب ^(٣) تقاد بين يديه مسرجة ، غير مركوبة ، للترزين ، والافتخار ^(٤) .

ومنها : كُتِبَ السلطان إلى الملوك ، والأمراء كانت تُكْتَب بالذهب ^(٥) .
ونتيجة لهذا الإسراف كان المماليك يعاملون الممولين بكل قسوة ، فكثرت الضرائب ، وأصبحت مصادرة الأموال تلاحق التجار ، والجرفيين ، والفلاحين .
ولم تكن الضرائب والمصادرة وحدهما هما سبب الشقاء الذى أرهق عامة الناس ، فى عصر المماليك ؛ بل يضاف إلى ذلك المجاعات المتعددة ^(٦) ، وغلاء الأسعار ، ويمكن الإشارة إلى أسباب هذه المجاعات فيما يأتى :

* منها الجفاف ، ونقص مياه النيل فى مصر ، أو غزارة الأمطار وغرق الأرض بالفيضانات والسيول فى الشام ^(٧) .

* ومنها الجراد ، والآفات الزراعية الأخرى ^(٨) ، من ذلك ما حدث فى سنة ٧٢٨ هـ حين ظهرت فى مزارع أرض مصر آفة من الدودة ، بعد حرٍّ شديد ، أتت

(١) أمير تيمور (٧٣٦ - ٨٠٧ هـ) من أحفاد جنكيزخان ، كان وزيرا ، وحاكما فى كِش ، وزحف فى سنة ٧٨٢ هـ ، على إيران ، وواصل فتوحاته غربا ، فانتصر على الأتراك العثمانيين ، فى أنقرة ، وفتح حلب ، ودمشق ، وبسط سلطانه على الشام . انظر : طبقات سلاطين الإسلام ٢٤٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢ / ٥٦ .

(٣) الجنائب : جمع جنيبة ، ما يقاد خلف السلطان من خيل مسومة .

انظر : Dozy : Supp. dict. Arab. V.I , P. 221 .

(٤) معيد النعم ٥٢ .

(٥) انظر : صرف العين ب / ٣٨ ، وصبح الأعشى ٢ / ٤٧٧ .

(٦) راجع : السلوك ٢ / ٣ ، ٦٢٢ ، و ٦٧٣ ، و ٧٥٣ ، والتوقيفات الإلهامية ١ / ٧٢٧ - ٨٠٠ .

(٧) دول الإسلام ٢ / ٢٣٣ .

(٨) السلوك ٢ / ١ / ٣٠٠ .

على أكثر الزروع ، وفى سنة ٧٤٣ هـ ظهر جراد عظيم ، سدَّ الأفق ، وأكل جميع الأشجار ، حتى أخشابها ، وأفسد الثمار كلها .

* ومنها العواصف والرياح الشديدة التى كانت تحجب الرؤية ؛ حتى لا يرى الإنسان رفيقه ، وتقتلع الأشجار ، وتهدم الدور ، وتُفَرِّق المراكب ^(١) .

* ومنها الحرائق الكثيرة التى كان يؤجج نارها بعض النصارى فى أموال المسلمين ، من ذلك حريق القاهرة الكبير ، فى سنة ٧٢٥ هـ ^(٢) ، وفيه يقول ابن الوردى ^(٣) :

عَدِمْتُكُمْو نَصَارَى مِضَرَ كُفُّوا فَكَمْ آذَيْتُمُونَا مِنْ طَرِيقِ
حَرِيقِ النَّارِ قَدْ عَجَلْتُمُوهُ فَأَجَلْنَا لَكُمْ نَارَ الْحَرِيقِ

* ومنها الأوبئة وانتشار الأمراض ، وبخاصة الطاعون المعروف بالوباء الأسود ^(٤) الذى بدأ عام ٧٤٩ هـ واستمر يطوف حول العالم خمس عشرة سنة ، لم ينج منه طير فى السماء ، ولا حوت فى أعماق البحار ، ولا حيوان على وجه الأرض ، وهلك فيه أكثر الأيدي المنتجة فى مصر والشام ، وقد حوّل كتاب الديوان سنة الطاعون إلى سنة ٧٥١ هـ ، وألغوا سنة ٧٥٠ هـ ، وكان يُقال : مات فى تلك السنة كلُّ شىء حتى السنة نفسها ^(٥) ، إنَّه الوباء الذى لم يحتج فيه الناس إلى دواء أو طبيب ، لسرعة فتك المرض بالناس ، وإذا ورث إنسان شيئاً انتقل فى يوم واحد عنه إلى رابع ، وخامس ، ولا تجد الأمتعة من يأخذها ، وخلت الدوروب والدور من الناس ، وتتناقل كتب التاريخ ما كتبه الصفدى عن تلك المأساة ، فقد قال إحدى عشرة مقطوعة

(١) السلوك ٢ / ١ / ٣٠٠ .

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٣٨٨ ، وراجع النجوم الزاهرة ٩ / ٦٥ .

(٣) أبو حفص ، عمر بن مُظَفَّر بن عمر ، ابن الوردى ، زين الدين ، المعرى ، الكندى (٦٩١ -

٧٤٩ هـ) شاعر ، أديب ، مؤرخ ، فقيه ، قاض له مؤلفات كثيرة ، وديوان شعر . انظر : ألحان السواجع ٢

/ ٤٣ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٣٠ ، ودرة الأسلاك ٣٦٦ ، وذيول العبر ٤ / ١٥٠ ، والسلوك ١ / ٢ /

٧٩٥ ، وتاريخ الأدب العربى ، بروكلمان ق ٦ / ٥٨٧ ،

وأعلام النبلاء ٥ / ٧ ، والأعلام ٥ / ٦٧ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٣ .

(٤) السلوك ٢ / ٣ / ٧٨١ ، والقاموس الإسلامى ٤ / ٤٣٥ .

(٥) صبح الأعشى ١٣ / ٦٢ .

يرثي فيها أصحابه ، من ذلك قوله عن الطاعون ^(١) : « لَمَّا دَخَلَ إِلَى صَفْدِ أَجْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَجْنَى ، فَمَا تَرَكَ بِهَا أَحَدًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْمَعَارِفِ حَتَّى اجْتَحَفَهُ سَيْلُهُ الْجَارِفِ ، فَكَمَ مِنْ صَاحِبٍ جَاءَنَا عَنْهُ نَاعِيهِ ، وَدَعَا إِلَى الْبَلَى مِنْهُ دَاعِيهِ ، فَقَالَ الْمَمْلُوكُ :

لِمَ افْتَرَسَتْ صِخَابِي يَا عَامَ تَسْعَ ارْزُبِينَا ؟
مَا كُنْتُ وَاللَّهِ تَسْعًا بَلْ كُنْتُ سَبْعًا يَقِينَا »

* ومنها الزلازل التي هَدَمَت البيوت والمساكن ، وَحَطَمَت القلاع والحصون ، وَأَزْهَقَت النفوس والأبدان ^(٢) .

* ومن العوامل التي تركت آثارها السيئة في الحياة الاقتصادية العامة الفتن الداخلية والثورات الشعبية من ذلك :

ثورة العامة ، في الإسكندرية بسبب مشاجرة بين مسلم ، وذمى ؛ فأحرق الثائرون باب الوالى ، فغضب السلطان وأمر بإعمال السيف فى رقاب الناس ، وأخذ من التجار أموالا عظيمة ، وقتل كثيرا من الفقهاء ، والمدرسين ، والصالحين ؛ لأنهم خرجوا وقت الفتنة ، يستغيثون ؛ وسبب غضب السلطان ظنة أن الباب الذى أُحرق هو باب السجن الذى يُخْبَس فيه أمراء المماليك ^(٣) .

ثورات الأعراب ، وهى أخطر الفتن الداخلية ، فقد كان الأعراب « ملوك البر ، وأمراء الشام ، والعراق ، والحجاز » ^(٤) واشتد فسادهم فى البلاد ، وكثر قطعهم للطرق ، واستخفافهم بالولاة ولا تمتد يد السلطان إلى من أجاره الأعراب ^(٥) ؛ لذلك حاول المماليك السيطرة عليهم ، بالتقرب إليهم وصلتهم ، تارة ، أو بحربهم وقتالهم تارة أخرى .

(١) منشآت الصفدى (مخطوطة التيمورية رقم ٤٢٦ / أدب) ٤٣ .

(٢) الوافى بالوفيات ٤ / ٣٦٤ ، والسلوك ٢ / ٣ / ٦٥٢ ، والنجوم الزاهرة ٨ / ١٠٢ .

(٣) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٤٠٢ .

(٤) مسالك الأبصار « قبائل العرب » ، لابن فضل الله العمرى ١١٢ .

(٥) السلوك ١ / ٣ / ٩٢٠ ، و ٢ / ٣ / ٦٥٦ .

والغريب أنَّ أفرادًا من علماء المسلمين كانوا - فى بعض الأحيان - مصدرًا من مصادر الشقاء والتعاسة لكثير من عامة الناس لسببين :

الأول : التَّشَدُّدُ الممقوت فى إقامة الحدود ، وتطبيق أحكام الشريعة بقسوة ، إذا كان مرتكب الجريمة من عامة الناس ^(١) ، من ذلك أنَّ فتاة بكرا من أهل حلب ، كَرِهَتْ زوجها ، فَلَقْنَتْ كلمة الكفر ؛ لينفسخ نكاحها قبل الدخول بها ، فقالتها ، وهى لا تعلم معناها ، فأحضرها البدرى بدار العدل ، بحلب ، وأمر فُطِطَتْ أُذُنَاهَا ، وشغُرْها ، وعلَّقَ ذلك فى عنقها ، وشُقَّ أنفها ، وطيف بها على دابة تشهيرًا ، وعبرة ، وكانت من أجمل الفتيات وشقَّ هذا الفعل على الناس ، وعملوا لها عزاء ، شاركت فيه النساء ، واليهود ، والنصارى ، ورثاها الشعراء .

والثانى : تسهيل أمر الشرع ، والترخيص لبعض الأمراء بما لم يُرَخَّصُوا فيه لعموم الخلق ، فيقولون « عن مجاوزة الحد فى التعزيرات : جائز عند مالك ، وعن بيع الوقف إذا خُزِّب ، وتعطلت منفعته ، ولم يكن له ما يُعَمَّر به : حلال عند أحمد ابن حنبل ، وهكذا » ^(٢) .

وتحدَّثنا كتب التاريخ عن كثير من أنواع البغى والظلم ليس لها ما يبرِّرها ، وليس لها من سبب إلاَّ الطيش والحماسة ؛ فهذا أمير من أمراء المماليك طبع الله على قلبه ، وساءت عقيدته ، فأقدم على اقتراف الفواحش فى رمضان ، ثمَّ جَهَّزَ كتيبة لتصادر أموال أهل حلب ^(٣) .

هذه الحياة القلقة المضطربة بما فيها من تناقضات ومفارقات وبما يشيع فيها من مآس وآلام قد تركت آثارًا واضحة فى سلوك الناس وأخلاقهم وعاداتهم : فمنهم من مال إلى العاجلة ؛ فجعل لإلهه هواه ، يغتتم اللذات ، ويتبع الشهوات .

ومنهم من ملأ اليأس قلبه ؛ فزهَّد فى الدنيا وزخرفها ، وانصرف إلى الآخرة ، يعمل لها هربا من الواقع .

(١) انظر : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٤٦ .

(٢) معيد النعم ١٠٢ .

(٣) المختصر ٤ / ١٣٨ .

وقليل منهم من استطاع أن يحيا حياة متزنة بين التصوف والمجون ؛ فلا يفرط في دينه ، ولا ينزل عن مجتمعه .

ويحدثنا المؤرخون عن المرأة - في مجتمع المماليك والطبقة العليا في الدولة - بأنها كانت تتمتع بقسط وفير من الحرية والكرامة ، وتؤدي دورا بارزا في الحياة السياسية ؛ فترفع ، وتخفض ، بل ذهب بعضهم إلى أن أول من ملك مصر من سلاطين المماليك كانت امرأة ، يعنون بها شجر الدر^(١) .

وفي البيئات المتوسطة كانت المرأة تخرج إلى الأسواق ، وتردد على الحثامات ، وتطلب العلم في المساجد ، وتشارك في الحياة العامة ، وتتمتع بقدر كاف من الاحترام^(٢) ، ولعل العصر المملوكي أكثر عصور التاريخ الإسلامي اشتمالا على عدد كبير من المحدثات ، والعالمات في الفقه اللاتي شاركن مشاركة فاعلة في نشر العلم الديني ، ولا نكاد نجد عالما من العلماء إلا وله إجازة من بعض العالمات ، أو قراءة على بعضهن ، ويذكر الذهبي أن من تلقى العلم عليهن ، ومن أجزن له ، أو كنّ في عصره ممن تشدّ الرحال إليهن ثلاث ومائة من النساء^(٣) .

أما وضع المرأة في البيئات الشعبية فإنّ كتب التاريخ تفضّ علينا بأخبارها ، وربما كانت إلى الظلم والاضطهاد أقرب قياسا على وضع الرجل في مثل هذا المجتمع الطبقي^(٤) ، وإن كانت الأدلة قائمة تثبت مشاركتها زوجها في عمله ، وتحملها مشاق الكسب والسعي بجانبه ، في سبيل العيش ، والحفاظ على الحياة .



(١) عصمة الدين ، جارية السلطان الملك الصالح (ت ٦٥٥ هـ) كانت بارعة الجمال ، ذات رأى ودهاء وعقل ، لما ولدت للسلطان ابنه خليلا أعتقها ، وتزوجها ، تولّت ملك مصر بعد وفاة زوجها في سنة ٦٤٧ هـ . انظر : ذيل مرآة الزمان ١ / ٦١ ، وكنز الدرر ٨ / ١٢ ، والوافي بالوفيات ١٦ / ١٢٠ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٣٩ ، وأعلام النساء ٢ / ٢٩٠ ، والأعلام ٣ / ١٥٨ .

(٢) انظر : مصر والشام ٢٧٠ .

(٣) راجع فهرس الأعلام في معجم شيوخ الذهبي .

(٤) مطالعات في العصر المملوكي ٤٩ .